كلمة الدكتور علي القيِّم

ممثل السيد وزير الثقافة راعي الحفل

عبد الكريم اليافي، هامة أدبية وثقافية كبيرة، رحلت عن عالمنا في ٢٠٠٨/١٠/١١، بعد مسيرة عطاء حافلة تركت بصماتها في أجيال عديدة من أبناء وطننا العربي، وفي حركة الأدب والفكر والفلسفة والعلوم.. عبد الكريم اليافي، كان «دكاترة» في دكتور. فهو العالم في السكان وعلم الاجتماع، وهو الشاعر والأديب والفيلسوف والمفكر وعالم التاريخ والرياضيات والعلوم الطبيعية والتراث العربي، وهو الإنسان البسيط المتواضع، الذي استطاع بعلمه وفكره أن يكون محط محبة طلابه ومريديه وإعجابهم.

هو المدافع عن أصالة وعظمة اللغة العربية، التي لا يجد لغة أقوى جذورًا مادية وروحية وفكرية منها، فهي اللغة البديعة الغنية المقدسة الخالدة، التي تعشقها الشعوب التي استنارت ببيانها الدقيق، وغِناها الزاخر العميق، وهي لغة العلم والأدب والفن والدين والعبادة، ولغة الجمال حيث مواكب من الألفاظ تدل على أنواعه وقيمه ومقولاته، وهي لغة الحب التي أُحصي فيها نحو ستين لفظًا تشفّ عن درجاته وألوانه وخوالجه.. إنها لغة ملء الزمان، ماضيه وحاضره ومستقبله.. إنها أمّ اللغات وأخلد الخالدات، جذورها أرضية وسماوية، ومعانيها وقتيّة وسرمدية..

عبد الكريم اليافي كانت له تجربة واسعة مع تعريب المصطلحات العلمية، مصطلحات التنميّة الاجتماعية والعلوم المتصلة بها، وتأصيل الثقافة العربية الذاتية ومشكلات الترجمة والتحقيق، وفي كل هذا وذاك كان يرى أن المعرفة لا حدّ لها ولا نهاية للغوص في أعماقها، أو التحليق في آفاقها، ويزيد أن العلوم كلها قد يرفد بعضها بعضًا، ولو كانت متباينة الميادين، مختلفة الموضوعات، ويرى أن المعارف الإنسانية متضافرة، وجدير بالأديب المثقف أن يلمّ بجملتها إلمامًا ما كي يتاح له النظر السديد، والحكم الرشيد في قضايا الأدب الواسعة والمتباينة..

في أبحاثه الجميلة والدقيقة يرى الدكتور اليافي أن الإنسانية كيان واحد، فقد نظر إلى تطور الإنسانية نظرة عامة تشمل أحقاب الزمن البعيدة، حتى لعصر الحاضر، ولا يساوره شك في أنها كيان واحد ينمو ويتقدم، وتسري فيه شريانات التكامل، مشتبكة على الرغم من الخلافات الناشبة والأمراض الفتاكة والحروب المدمّرة، والانحرافات المضللّة، وليست الشعوب التي تحتويها الإنسانية منعزلاً بعضها عن بعض الانعزال كله، ولا منطويًا بعضها على نفسه انطواءً مطبقًا، بل بينها دائمًا نصيب من الاتصال والارتباط ضئيل أو جسيم، ومثل هذا الارتباط والاتصال والميل إلى التقارب والتعارف أشد ما كان البشر شعورًا به اليوم.. ثم إن حصائل العلوم في العصر الحاضر، وثمرات الحضارة الراهنة ليست هي من مبتكرات شعب واحد من الشعوب، أو عرق ممتاز من العروق، وإنما شاركت فيها فئات كثيرة وزمر متعددة، ولئن كان لشعب أن يفتخر بالمعارف الفكرية التي حصل عليها، والإتقان الذي وصل إليه فهو لا شك الشعب العربي، ولا سيما في أحقاب حضارته الإسلامية،

ويشهد على ذلك التراث الغني الضخم في العلوم والفنون والآداب والأخلاق والفلسفة، وهو تراث يزّين مفرق الدهر بجواهره المتلألئة الخالدة..

❍ ❍ ❍

في أبحاثه العديدة والشاملة عن التراث العربي الإسلامي، أكّد الدكتور اليافي دور الحب في حياة الناس، فهو يرى مع الشيخ الرئيس – ابن سينا – سريان قوة العشق والحب في جميع الكائنات، من هويات عامة وبسائط حية وصور نباتية ونفوس حيوانية وأناس (ذكور وإناث)، وينتهي إلى أن كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقًا غريزيًّا، وأن الخير المطلق يتجلى لعاشقه، ويبيّن في كتاباته أن المحبة مقترنة بالمعرفة والإدراك فلا يتصف جماد بالحب مثلاً، والحب هو ميل بالطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقًا..

المحبة في التراث العربي الإسلامي قطبها الإنسان، سواء كان محبًّا للإنسان أو كان محبوبًا من أخيه الإنسان، وسواء كان حبه لله أو كان حب الله له، أو كان الحبان مشتبكين، فلا بد من أن يلمّ به ذلك الحب، وأن يغمره بنوره المتألق المتعدد الألوان.

وامتد هذا الحب إلى كل ما يتعلق بالإنسان وتراثه وتقاليده وعاداته وحياته، حتى الأزياء التي نظر إليها على أنها ظاهرة من ظواهر الحضارة وهي نوع من أنواع الفنون، وداخلة في آداب الدين والدنيا، وفي حوار الجسد والروح، أو الظاهر والباطن. يقول الدكتور اليافي: «لما كانت الأزياء تتعلق باللباس الذي يظهر به الإنسان بين أشباهه، نشأ في طبيعتها ومنذ القديم

حوار يتردد بين تجميل الظاهر وتزيين الجسد من جهة، وبين العناية بالباطن والتنويه بمزايا القلب والروح من جهة ثانية».

والزي برأي الدكتور اليافي يجري بين الناس من الأعلى إلى الأدنى، يقول: «إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعاداته وعوائده» وهو في ذلك يؤكد مقولة ابن خلدون في مقدمته: «السبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه».

ولقد كان الأوربيون يقلدون العرب حتى بعد أن جلا العرب عن بعض الأقطار التي نشروا فيها حضارتهم، ويذكر ابن جبير في رحلته الشهيرة، كيف كانت نساء جزيرة صقلية يتشبهن بالعربيات ويتكلمن العربية.. إن الاقتداء بالزي علامة ضعف، وهذا ما يؤكده الدكتور اليافي من دراسته، ويتأثر بالدرجة (الموضة) ويعنو لتيارها الرجال والنساء جميعًا، وإن كانت النساء أكثر تبعًا وانسياقًا بالدارج منها، مع الإشارة إلى أن الأصل في الزي إبراز الجمال والإيحاء بالمحاسن، وينبغي أن تكون مترجمة لمزايا الشخص الحسيّة والمعنوية أو لمزايا الجيل كله وهي في الحقيقة ضرب من التعبير.

❍ ❍ ❍

عبد الكريم اليافي عاش الحياة بكل دقائقها، وتحدث من القلب عن وقائعها، فكانت دراساته وأبحاثه وكتاباته الفلسفية والأدبية والتراثية، أنشودة الكاتب، الأديب الباحث عن مجد الإنسان وحضارة الأمة العربية والإسلامية الحافلة بالعطاء والعلم والأدب والثقافة، وكانت إبداعاته سفرًا في تكوين جديد.. سلاته أزهار، هواه حب، كلماته غذّتها الشمس، وأنهلتها أضرعة

السحاب..

كان - رحمه الله - كوكبًا سيّارًا، يلملم الأنوار، ويسبح في الزرقة ليقطف الثمار.. هواه حب أودعه بجني الأفكار.. فراشة حقل، أنشودة غنّى بها البلبل والنهر.. رواها هزار يسكر الوجود متى غنّى.. هو الربيع زهرًا وجنّى..

لقد حمل عبد الكريم اليافي في كتاباته الفلسفية والجمالية، مفتاح البوابة الكبرى، بوابة الجمال، فقد كان يدرك جيدًا أن الذي يملك مفتاحها يستطيع أن يفتح كل الأبواب، لذلك استطاع بقوة وجدارة أن يترك في عالم الجمال الفسيح بصمة وعلامة مميزة، كان لها حضورها الكبير في حياتنا الفكرية والفلسفية والثقافية.

لقد نفض اليافي غبار التاريخ الغافي، وأبرز معالمه ومروياته وجمالياته ومكنوناته التراثية، في صور جليّة واضحة، بأسلوب واضح وتحليلات علمية دقيقة.. لقد أبرز بعض وقائع وأحداث التاريخ والتراث العربي بحلّة قشيبة، توضّح الجوانب والملامح بكثير من الضوء.. أحيانًا، والظل أحيانًا أخرى، وتُنير إلى حد ما صورة المجتمع العربي منذ زمن بعيد.

في كتاباته التراثية والأدبية، لم ينظر إلى تراثنا العربي نظرة تقليدية، بل نظرة علمية موضوعية، تتصف بالإنصاف والحيوية، وبذلك حاول أن يكون دارسًا لعادات وتقاليد وفنون، ولشخصيات نبيلة من أبطال التاريخ العربي، فقدم أقاصيص ودراسات ومقالات مختلفة الألوان.. في كل منها حياة ورؤية كاملة..

حافلة بشتى الآراء والعواطف والاجتهادات المعلمية، الواعية لمسيرة العطاء والتجدد في التراث والفكر العلمي العربي.. لقد وجّه الضوء إلى نواحٍ مظلمة في تاريخنا العربي، وأدخل الشعر والأدب والفكر والفلسفة في سياق متكامل. ليسبغ عليها الشكل العلمي والبحثي الواسع المدى.

ونؤكد أن اليافي في كل ما كتب من مؤلفات ودراسات ومقالات وخواطر وشعر حريصٌ على أصالة اللغة العربية وصفائها، فقد بلغ حبّه لها حدّ القداسة، وكأنه كان يردد دائمًا مع الشاعر الكبير محمد كامل صالح: «لا يستطيع أحد أن يكتب بلغة لا يحبها، بل لا يعبدها.. والعبادة لغة المعرفة والتقديس، فإن لم تفعل فستجدها بعيدة عنك.. إن لم تفهم لغتك.. إن لم تعبدها، لن تعطيك أسرارها ولن تستطيع الكتابة لها».

عبد الكريم اليافي عاش الحياة، وعاش في الناس، فكان فيضًا من العطاء لتدفق الذي ارتقى به سدّة المجد، وحلّق في سماء روابي الوطن، خمائل جميلة، وأهازيج نحلٍ، وأطياب فلٍ ورياض أقاحٍ، وطلائع صبح ندي..

○ ○ ○